آلية التغيير الحضاري عند مالك بن نبي لإحداث التنمية الشاملة في المجتمعات العربية بصفة عامة والمجتمع الجزائري بصفة خاصة.

أ. صليحة بن سباع

جامعة الشيخ العربي التبسي (تبسة)

ملخص المداخلة

اهتم علماء الاجتماع الغربي بحقل علم الاجتماع الحضري، وإذا كانت هناك اتجاهات فكرية عبرت عن الايكولوجية الحضرية والبناء الاجتماعي في المجتمعات الغربية من خلال مؤشرات تمثل الأساس الفكري للإطار الإيديولوجي لهذه المجتمعات، فان هناك اتجاه نظري آخر له منطلق إيديولوجي ذا بعد إنساني واجتماعي متكامل، ويظهر هذا من خلال القراءة المتأنية في فكر مالك بن نبي، ومن خلال تحليله العميق للتطور التاريخي الذي أدى بالحضارة الإسلامية إلى أزمتها الحالية، كشف لنا عن قناعته بمركزية العامل الإنساني والبعد الثقافي الإسلامي في عملية التغيير، كما انه انطلق من وجمة نظر مفادها أن: الإنسان هو الذي تغير وفقد همته الحضارية، وانطلاقا من ضرورة التركيز في إعادة التفكير بالظاهرة الحضارية والعوامل المؤثرة فيها وتعميق الوعي بها، وانتصارا للفعل الاجتماعي المثمر وللتغيير الحضاري برؤية مستقبلية هادفة، فمن الضروري التركيز على الأساس الإيديولوجي للإسلام الذي يجمع بين العلم والدين في مختلف المجلات، والذي يعتبر العامل الأخلاقي أساس الحضارة الإنسانية الفاعلة، واستنادا للطرح السابق ارتأينا الانطلاق في بحثنا من الإشكال التالي:

ما هي آلية التغيير الحضاري التي انطلق منها المفكر الجزائري مالك بن نبي لإحداث الفعالية والتنمية الشاملة في المجتمع العربي بصفة عامة والمجتمع الجزائري بصفة خاصة؟

مقدمة:

يعيش المجمع العربي بصفة عامة والمجتمع الجزائري بصفة خاصة نوعا من التشرذم الثقافي والحضـــــاري نتيجة غياب الفعالية بين المؤسسات الاجتماعية المختلفة و اللاتجانس بين الواقع الاجتماعي والإطار الفكري التنموي، بسبب غياب العلاقة الايجابية بين الفكرة والسلوك الفاعل وكذلك عدم وجود إطار نظري في حقل علم اجتماع التنمية يساعد في عملية الإقـــلاع الحضاري داخل المجتمعات العربية، لمواجهة تحديات مجتمع المعرفة وإرهاصات العولمة، التي أصبحت تفرض نفسها علـى العالم بأسره، هذا الأخير الذي تتحكم فيه أو توجهه ثلاث محاور هي: محور العلم، محور القوة ومحور الحضارة، وبما أننا في عالم متغير لا تكاد تظهر ملامحه بصفة واضحة للعيان، إذ أننا أمام حضارتين متناقضتين الحضارة الغربية المسيطرة حاليا والحضارة الإسلامية التي تعيش نوعا من الترهل والتفكك والتراجع بالرغم من إسهامها في نقل التراث الإنساني وفي إحياء التراث الفكـــري بصفة عامة في جميع الميادين، وفي هذا الإطار حاول المفكر الاجتماعي أو بالأحرى عالم الاجتماعـــي الجزائري مالك بن نبي وضع آلية للتغيير الحضاري في العالم العربي الإسلامي والمجتمع الجزائري كواقع خضع لنوع من المعاينة عن طريق الملاحظـــة المباشرة والهادفة من طرفه واستخدم المقارنة الهادفة، وذلك

لغرض إحداث عملية الإقلاع الحضاري لمواجهة تحديات الألفية القادمة، ومن خلال هذه المداخلة سنحاول عرض وتحليل هذه الآلية انطلاقا من العناصر الآتية:

أولا: التربية الاجتماعية وشبكة العلاقات الاجتماعية.

ثانيا: إعادة بناء وتفعيل الثقافة العملية داخل النسق الاجتماعي.

ثالثا: التنمية الهادفة في المجتمعات العربية والمجتمع الجزائري أساس الإقلاع الحضاري.

أولاً: التربية الاجتماعية وشبكة العلاقات الاجتماعية.

1- مراحل تطور الفكر الإنساني عند مالك بن نبي.

من الضروري قبل تحديد أو بناء مفهوم التربية الاجتماعية عند عالم الاجتماع مالك بن نبي أن ننطلق من المراحل التي مرّ بها الفكر الإنساني، فلقد أعطى تحديدا دقيقا لهذه المراحل وفق المنهج التربوي والذي يجعل القرآن الكريم مصدره الحقيقي، إذ أن القرآن الكريم يعد شريعة ومنهاجا في حياتنا اليومية، "فالإنسانية على العموم، تمر بثلاثة أعمار من حيث تطورها النفسي، فهي في عمرها الأول، في طفولتها، تصيغ كل أحكامها طبقا لمقاييس تتعلق بعالم الأشياء، بحيث تكون أحكامها في ابسط صورها، معتمدة على الحاسة أو ناتجة عن الحاجة البدائية، ثم في عمرها الثاني تصيغ أحكامها طبقا لمقاييس خاضعة لمبدأ القدوة، أي صادرة عن عالم الأشخاص، ففي هذا الطور، تكون الفكرة حرة من التجسيد، بحيث تكون قيمتها مرتبطة بالشخص الذي يجسدها في نظرنا، ثم تبلغ الإنسانية رشدها، أي عمرها الثالث، فتصبح الفكرة ذات قيمة في حد ذاتها، دون أيما تأييد من طرف عالم الأشياء أو عالم الأشخاص، وان ما يجب ملاحظته هنا، أن الإنسانية تبلغ هذا العمر، عمر النضج، بحيث تصبح الفكرة لا تحتاج إلى ضمان قيمتها من طرف الأشخاص علاوة عل الأشياء".(**مالك بن نبي،1969،ص ص،34-35**)

إذن الفكر الإنساني مرّ بثلاثة مراحل تجسدها ثلاثة عوالم، عالم الأشياء ثم عالم الأشخاص وفي الأخير عالم الأفكار، بطبيعة الحال اختصر المراحل التي مرّ بها المجتمع الإسلامي محاولا إسقاط هذه المراحل على المجتمعات الإنسانية بصفة عامة، وهي في الحقيقة عملية اختزالية دقيقة تعبر عن مراحل تطور الفكر بصفة تدريجية خاضعة لمنطق ومنهج عملي رصين تتحكم فيه جدلية تاريخية خاضعة لنسبية الزمان والمكان، والملاحظ أن الفكرة الإسلامية في البداية كانت مرتبطة بذات النبي الأمي محمد "صلى الله عليه وسلم "،لكن القرآن الكريم أراد أن يتحرر المجتمع الجديد من هذا النوع من القيود المعيقة والمعطلة لتقدم الفكر والعلم، وبهذا يكون القرآن قد وضح الأحكام بصورة تدريجية حتى يتسنى للعقل الإنساني تقبل ذلك، فالجانب النفسي الاجتماعي يتحكم في سلوك البشر وهذا فطري في الإنسان، وبذلك يكون الإسلام قد وضع قواعد للمنهج العلمي في اشمل معانيه ومُوَجِه للحياة الاجتماعية بكافة حقولها وللبشر بالاختلاف أجناسهم، فالقرآن الكريم هو موجه البشر ومرشدهم في كل مكان وعبر كل زمان.

إن مراحل تطور الفكر الإنساني تعبر عن حقيقة مرّت بها المجتمعات بداية من آدم عليه السلام إلى غاية الرسالة المحمدية والتي هي بمثابة ميثاق يربط البشر بخالقهم والذي تجسد في القرآن الكريم وضرورة العمل بأحكامه لضمان سعادة البشر، فمنذ أن أوكل الله سبحانه وتعالى للبشر أمانة استخلاف وتعمير الأرض وهو يحيطهم بعنايته الخاصة بدءا بآدم

عليه السلام أبو البشر إلى نوح عليه السلام وكيف انه انقضه هو وجميع المخلوقات من الفناء، وهكذا فان الإنسان يحتاج إلى هذه الصلة التي ترسم وتوجه مسار حياته وذلك لان الجانب الروحي المخلوق منه يمارس عليه عملية الجذب عن طريق الضمير، وهذا الأخير يمكن أن ننطلق عليه مصطلح **الأمر بالمعروف والنهي** عن المنكر وهو يعبر عن مصطلح **الضبط الاجتماعي** في الحضارة الغربية.

من كل ما سبق يتضح أن الإنسان يحتاج إلى هذه الصلة بينه وبين خالقه والتي تتجسد في الدين،"**ويأتي الدين في القرآن الكريم بمعنى نظام الحياة عامة عقيدة وشريعة وخلقا**".(**نبيل محمد توفيق السّمالوطي، دون سنة، ص22**)

إذن يمكن القول: إن القرآن الكريم نظام شامل وليس خاصا بالجزيرة العربية فقط في بدايته، بل هو رسالة إلى كافة البشر فهو نظام إنساني واجتماعي في نفس الوقت، وهو الكفيل بتحقيق أمل الإنسان في الأمن والرخاء والعدل والمساواة وتكافؤ الفرص والمشاركة الواعية في صنع واقعه وتنمية مجتمعه أخلاقيا واجتماعيا وتكنولوجيا، وتخليصه من كل ألون الحقد والزيف التي تعاني منه المجتمعات.

المجتمع الإسلامي في بدايته وحسب تعبير مالك بن نبي: "وهكذا نرى أن كل ملامح هذا المجتمع النفسي تتغير منذ نزول (اقرأ) تغيرا يتولد عنه المناخ العقلي الجديد "(**مالك بن نبي، 1969،ص 36**)،ومن الضروري الإشارة إلى أن القرآن الكريم نزل على سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم حاثا إياه على ضرورة القراءة، ومن هنا كان لزاما على المسلم أو بالأحرى أن الضمير الإسلامي الناشئ أصبح أكثر حثا على طلب العلم، وأكثر إنصافا لرجل العلم على الجاهل في المجتمع الجديد، ومن هنا يبدأ تأثير الفكرة الدينية في حياة الفرد الذي أصبح شخصا بسبب عملية التنحية والانتقاء داخل المجتمع، "

وفي هذه الحالة يتحرر الفرد جزئيا من قانون الطبيعة المفطور في جسده، ويخضع وجوده في كليته إلى المقتضيات الروحية التي طبعتها الفكرة الدينية في نفسه، بحيث يمارس حياته في هذه الحالة الجديدة حسب قانون الروح، هذا القانون نفسه هو الذي كان يحكم بلالا حينما كان تحت سوط العذاب يرفع سبابته ولا يفتر عن تكرار قولته (**احد، احد...**)،إذ من الواضح أن هذه القولة لا تمثل صيحة الغريزة، فصوت الغريزة قد صمت، ولكنه لا يمكن أن يكون قد ألغي بواسطة التعذيب، كما أنها لا تمثل صوت العقل أيضا فالألم لا يتعقل الأشياء."(**مالك بن نبي، 1986،ص68**)

2- التربية الاجتماعية.

لقد تعمدنا الحديث عن حادثة التعذيب التي تعرض إليها بلال رضي الله عنه في بداية الدعوة المحمدية وذلك لأنها تمثل قمة التربية الاجتماعية حسب مالك بن نبي، فهي المرحلة التي يتحرر فيها الإنسان من الجانب الغريزي ويسمو في عالم الروح، وبطبيعة الحال هذا التحرر ليس نهائيا وإنما يمثل مرحلة الانتقال من حالة فرد إلى حالة شخص بفضل الفكرة الدينية التي ترسخت في اعتقاده، وجعلت الألم لا معنى له أمام نداء الروح، فهذه العملية التي تجسدت في نداء الروح تمثل قمة التربية الاجتماعية.

ويرى مالك بن نبي أن: "...العلاقة الروحية بين الله وبين الإنسان، هي التي تلد العلاقة الاجتماعية، وهي بدورها تربط ما بين الإنسان وأخيه الإنسان. "(**مالك بن نبي، 1985،ص ص، 52**)

هذه الحقيقة لمسنا من خلال العلاقات الاجتماعية التي تكونت في بداية تكون المجتمع الإسلامي، فظهرت للعيان قيم خلقية لم تكن موجودة من قبل وأصبحت جزءا من حياة المسلم اليومية مثلا: تحريم الخمر وكذا الكف عن وائد البنات، "فالعلاقة الاجتماعية التي تربط الفرد بالمجتمع هي في الواقع ظل العلاقة الروحية في المجال الزمني." (**مالك بن نبي، 1985، ص52**)

والواقع أن المجتمع ليس ببساطة مجرد بناء اجتماعي ثابت ثباتا مطلقا لكنه في نفس الوقت مجموعة من العمليات الاجتماعية، فالقيم والعلاقات والأهداف ومختلف مكونات التنظيم الاجتماعي التي تعد ثابتة نسبيا خلال لحظة معينة يعتريها التغير البطيء باستمرار، وبعض التغيرات يكون بطيئا والبعض يكون سريعا لدرجة ملحوظة خلال فترة زمنية محددة بحيث تحدث أثرا على بناء المجتمع.(**نبيل محمد توفيق السمالوطي، دون سنة، ص 144**)

ويعرف التربية قائلا: "إن إدماج الفرد في شبكة اجتماعية عملية تنحية وهو في الوقت ذاته عملية انتقاء، وتتم هذه العملية المزدوجة في الظروف العادية، أي في حالة المجتمع المنظم _بواسطة المدرسة _وذلك ما يسمى بالتربية".(**مالك بن نبي، 1986،ص 52**)

3– شبكة العلاقات الاجتماعية.

الملاحظ أن شبكة العلاقات الاجتماعية ما هي إلا نتيجة للفكرة الدينية التي ترسمت في ذهن الفرد والمجمع فأصبح كلاهما يمثل الأخر ويعبر عليه، في صورة معبرة عن عملية التفاعل والفعالية، وفي هذا الإطار يقول مالك بن نبي: "وفي نفس الوقت يواصل المجتمع الذي أبرزته الفكرة الدينية إلى النور، وتكتمل شبكة روابطه الداخلية، بقدر إشعاع هذه الفكرة في العالم."(**مالك بن نبي، 1986،ص68**)

فالزواج مثلا يعتبر علاقة اجتماعية جوهرية، وهو من الناحية التاريخية يعتبر أول عقد في شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتيح لمجتمع معين أن يؤدي نشاطه المشترك، وكلما حدث إخلال بالقانون الخلقي في مجتمع معين حدث تمزق في شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتيح له أن يصنع تاريخه.(**مالك بن نبي، 1985،ص49**)

لذلك نجد القرآن الكريم قدس هذه العلاقة الزوجية ووصف هذا العقد بالميثاق الغليظ لان أساسه علاقة دينية روحية هدفها الأساسي بناء المجتمع وتعمير الأرض من اجل عبادة الله سبحانه وتعالى، وهذه العلاقة هي أساس عمل المجتمع لان الأسرة هي أول عمل منتج داخله، وفي تعبيره عن شبكة العلاقات الاجتماعية نجده يصوغ المعادلة التالية: "(**الفرد للمجموع –والمجموع للفرد**)،وهذا يعبر عن شبكة العلاقات الاجتماعية في ارقي معانيها وفي أقصى فعاليتها."(**مالك بن نبي: 1985،ص107**)

وشبكة العلاقات الاجتماعية تضعف بانخفاض تأثير الوازع الديني في المجتمع لان نسقه الاجتماعي بدا يعتريه الخلل بسبب طغيان المصلحة الخاصة على المصلحة الفردية لضعف الوازع الديني داخل أفراده، وهذا هو الخطر الحقيقي الذي يواجه الكيان الاجتماعي وبالتالي المسوغات الاجتماعية داخل الفرد المسلم.

ويرى هنا أن الفعالية يمكن أن تحل هذه المشكلة قائلا: "فإذا قلت سلوك بعض أفراد مجتمعنا المثقفين أو غير المثقفين، فنحن إذن أمام حاجة تطبيع سلوكنا بالفعالية، فإذا كان التعليم والعلم لا يكفيان لطبع سلوكنا بالفعالية فان

علينا أن نتجه اتجاها آخر، لأننا قد ورطنا مفهومنا للثقافة عندما نظرنا إلى العلم على انه يطبع سلوكنا بالفعالية، وانه يمدنا بالمبررات، بينها العلم ليست هذه مهمته ولا وظيفته". **(مالك بن نبي، 2006، ص105)**

إذن من الواضح أن المشكلة التي تعتري المجتمع العربي الإسلامي هي مشكلة بناء الثقافة العملية لإعادة بنا ء مسوغات الحضارة من جديد للدخول في التاريخ وتسجيل الحركية الفاعلة فيه من جديد، لذلك سنتطرق إلى عملية بناء وتفعيل الثقافة العملية داخل النسق الاجتماعي حسب التحديد الذي وضعه عا لم الاجتماع مالك بن نبي.

ثانياً: إعادة بناء وتفعيل الثقافة العملية داخل النسق الاجتماعي.

1- الفرق بين الثقافة والعلم

قبل أن نتطرق للثقافة عند مالك بن نبي وتحديدها أو بنائها العملي سنتطرق إلى تعريف الانثروبولوجي للثقافة عند العا لم الغربي Tylor فالثقافة عنده هي: "ذلك الكل المعقد الذي يشمل المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق، والقانون والعادات، وكل القدرات التي يكتسبها الإنسان كعضو في الجماعة". **(حسان محمد حسان وآخرون، 2006، ص134)**

حيث أن هذا التعريف سيطر على ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية لمدة طويلة بالرغم من التعاريف المختلفة لمصطلح الثقافة، إذ يوجد هناك اختلاف في تعريف الثقافة كل حسب اتجاهه وفكره، فتعريف تايلور للثقافة بالرغم من شيوعه في الفترة السابقة، إلا أننا نرى أنه عاجز عن التفريق بين الثقافة والعلم كما فعل مالك بن نبي، "فإذا كانت المدرسة الغربية الرأسمالية تعرف الثقافة بأنها (فلسفة الإنسان)،وإذا كانت المدرسة الماركسية تعرف الثقافة بأنها (فلسفة المجتمع)، فان مالك بن نبي يجمع بين النظرتين ويقرر بان الثقافة تشمل فلسفة الإنسان وفلسفة المجتمع في آن واحد، ولذلك نجده يقول: فالثقافة إذن تعرف بصورة عملية على أنها: مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته كرأسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته". **(يوسف محمد حسين: 2010، ص214)**.

فهو يؤكد أن الثقافة هي قضية الإنسان والمجتمع في آن واحد، وهي دستور تتطلبه الحياة العامة، بجميع ما فيها من ضروب التفكير والتنوع الاجتماعي، ولقد شبهها بأنها الدم الذي يسري في عروق المجتمع الذي وجدت فيه منذ البداية، والثقافة هي موجه الحضارة بالنسبة لكل الشعوب منذ تاريخ الإنسانية الأول وعن طريقها يسجل المجتمع حضوره.

وينحصر برنامجها التربوي في عناصر أربعة يتخذ منها الشعب دستورا لحياته المثقفة:**(مالك بن نبي: 1986، ص87)**

1- عنصر الأخلاق لتكوين الصلات الاجتماعية.

2- عنصر الجمال لتكوين الذوق العام.

3- منطق عملي لتحديد أشكال النشاط العام.

4- الفن التطبيقي الموائم لكل نوع من أنواع المجتمع أو (الصناعة) حسب ابن خلدون.

إن نهضة وتقدم آي مجتمع متوقفة على طبيعة الأفكار التي يحملها أفراده فالإنسان من طبيعته التجديد والتغيير والبحث عن الأحسن والأفضل لتحقيق التنمية على جميع المستويات وفي كل الميادين، فالحضارة والتنمية لهما معادلة من

خلالها يحدث الانسجام والتكامل داخل المجتمع وهذا مقرون بعملية التغيير من داخل الأفراد، ولا يتحقق ذلك إلا عن التكامل بين عالم الأفكار والأشخاص والأشياء، فحسب مالك بن نبي "**كل حقيقة لا تؤثر على الثالوث الاجتماعي، الأشخاص والأفكار والأشياء هي حقيقة ميتة" (مالك بن نبي، 1979، ص93)**.

وفي اعتقاده إننا نصنع التاريخ حينما نقوم بنشاط مشترك، والذي يعني تقاسم الأدوار من جهة، وتكاملها من جهة أخرى، أي يجب أن تكون شبكة علاقاته قوية ومنسجمة ومتماسكة، ولن يتأتى لنا هذا الانسجام في شبكة العلاقات إلا إذا استطعنا تغيير نفسية الفرد، ونقلناه من حالته الطبيعية أي من كونه مجرد كائن حي إلى حالته الإنسانية أي إلى كونه كائن اجتماعي. (**محمد عاطف: 2009، ص127**)

ومن المسلم به أن الصناعة للفرد وسيلة لكسب عيشه، وربما لبناء مجده، ولكنها للمجتمع وسيلة للمحافظة على كيانه، واستمرار نموه، ويرى مالك بن نبي أننا نواجه مشكلة خطيرة هي التربية المهنية، وفي هذا الإطار يقول: "ولسوف تخيب أمالنا التي عاقدناها، إذا ما عولنا في قضيتنا على العلم الذي نتعلمه في المدارس الرسمية أو غير الرسمية،..." (**مالك بن نبي، 1979، ص97–98**)

ولا يتوقف عند هذا الحد بل يرى أن حل مشكلة الإنسان تتكامل في ثلاثة عناصر أساسية هي: توجيه الثقافة، وتوجيه العمل، وتوجيه رأس المال.

إن دعوة مالك بن نبي إلى ضرورة امتلاك فكرة واضحة عن النظام التربوي الذي يتولّى مهمة بناء المجتمع من خلال بناء الأفراد، يؤكد من جهة أخرى الموقع المتميز الذي تتمتع به التربية في انجاز مشروع مالك بن نبي للتغيير الحضاري في العالم الإسلامي. (**عمر النقيب: 2009، ص289**)

ومالك بن نبي أعطى لتغيير نفسية الفرد دورا بارزا في عملية البناء الحضاري من خلال تكامل الثالوث الاجتماعي، عالم الأفكار، وعالم الأشخاص وعالم الأشياء، وهذه العملية تمثل الاستثمار الأمثل في الثلاثية الحضارية: الإنسان، الوقت والتراب، والعامل الديني هو الذي يؤثر في مزج العناصر الثلاثة التي تمثل الحل لكل مشكلة تواجه أي مجتمع مهما كان نوعه، "وعلاج أي مشكلة يرتبط بعوامل زمنية نفسية ناتجة عن فكرة معينة، تؤرخ من ميلادها عمليات التطور الاجتماعي، في حدود الدورة التي ندرسها."(**مالك بن نبي، 1986،ص48**)

واعتبر الثقافة بمثابة الدم الذي يجري في عروق المجتمع، ومن خلال الصيغة العملية لها اوجد لها برنامج تربوي تقوم به لضمان انسجام المجتمع وتكامله في علاقاته وفي تبادل الأدوار داخله، وهذا البرنامج التربوي ينبغي أن يتخذه الشعب دستورا لحياته العامة، فالعامل الأول هو القانون الأخلاقي وهو أساس التماسك الاجتماعي، والعامل الثاني هو القانون الجمالي لتكوين الذوق العام للمجتمع، وهذا العامل يخضع للمبدأ الأخلاقي في المجتمعات الإسلامية، والعامل الثالث هو المنطق العملي لتحديد أشكال النشاط العام ويرى أن في حياتنا اليومية جانبا كبيرا من (اللافعالية) في أعمالنا إذ يذهب جزءا كبيرا في العبث والمحاولات الهازلة، فلابد من التكامل بين القول والعمل، أما بالنسبة للعامل الرابع والذي يتمثل في الصناعة حسب تعبير ابن خلدون ويقصد به التربية المهنية والتي تتمثل في إعداد الأفراد تبعا لحاجات البلاد، وبهذه الطريقة الهادفة والفعالة وحسب تعبيره فسترتفع كمية حصادنا العقلي واليدوي والروحي، وهذه هي الحضارة.

وفي الأخير نعطي تعريفا إجرائيا أورده مالك بن نبي في خضم حديثه عن العلاقة بين الثقافة والسياسة قائلا: "...فلابد لنا أن نعرف الثقافة على أنها توجيه الطاقات الفردية، لتحقيق بناء الفرد في الداخل بالنسبة إلى مصلحته، ولتحقيق مكانه في المجتمع بانسجام تلك المصلحة مع مصلحة المجتمع." والتحديد هذا يدخل في نطاق الأخلاق، وفيه ما يخرج من هذا النطاق ليدخل في نطاق العلم. (**مالك بن نبي، 1979، ص25**)

والسياسة بالنسبة إليه وظيفتها الأساسية توجيه الطاقات الاجتماعية وذلك لبناء المجتمع من الداخل ومن الخارج من خلال تعزيز مكانته بالنسبة للعالم، ومن الداخل الحفاظ على طاقته الاجتماعية، لان هذه الأخيرة تنبع من الفرد لتعود إليه في صورة ضمانات اجتماعية، وبالتالي فان هناك تضامن بين الثقافة والسياسة وليس ترتيب وأسبقية.

والجدول التالي يوضح بصورة دقيقة هذه التفرقة بين العلم والثقافة والذي اجتهد من أجل إحداثها، كما أنه وضح المبادئ الفاعلة في عملية الثقافة لكي يوضح الفرق بصورة عملية أكثر.

الجدول رقم(1): الفرق بين الثقافة والعلم

الثقافة	العلم
-الثقافة تعطي العلم. -إنها تعطي السلوك والغنى الذاتي الذي يتواجد على كل مستويات المجتمع. -تعطي امتلاك القيم الإنسانية التي تخلق الحضارة. -الثقافة تخلق الإنسان الذي يراقب. -تستمر في تجميل الأشياء وتحسينها وهذا هو مبدأ ذوق الجمال وهو من أهم العناصر الديناميكية في الثقافة. -المبدأ الأخلاقي وذوق الجمال والمنطق العملي والعلم أو الصناعة هي عناصر الثقافة الأربعة.	-إن العلم يعطي المعرفة إنه يعطي اللباقة والمهارة وفقا للمستوى الاجتماعي الذي يتم عليه البحث. -يعطي امتلاك القيم التقنية التي تولِّد الأشياء. -العلم لا يولد الثقافة دوما. -العلم تنتهي عمليته عند إنشاء الأشياء وفهمها. -العلم غير شخصي موضوعي. -العلم أو الصناعة حسب تعبير ابن خلدون يكون عنصرا هاما في الثقافة لا يتم بدونها.

المصدر: كتاب مالك بن نبي من اجل التغيير

لقد كان الهدف الرئيسي من التمييز بين الثقافة والعلم هو: إعطاء معنى عملي للثقافة للاستفادة منها على مستوى الواقع الاجتماعي وبالأخص في توجيه عمل النظام التربوي لان هذا الأخير أساس عملية التنمية، كما أن معنى الثقافة غير محدد وخصوصا في المجتمعات العربية و الإسلامية.

ويلاحظ المتتبع والمهتم بهذا المجال أن القرن التاسع عشر أحدث تحولا وتقدما في طريق تطوير تعريف الثقافة، حيث شهد هذا القرن تحولا واسعا في دراسة الواقع الاجتماعي بصورة أكثر عمقا وشمولا من ذي قبل... وأصبحت دراسة الثقافة أحد مشكلات علم الاجتماع بصفة عامة.(**نعيم حبيب جعنيني،2009، ص 137**).

وبالتفريق بين العلم والثقافة أنهيت البلبلة الفكرية المضرة جدا، والتي جعلت لفترة طويلة كلمة "علم" مرادفة لكلمة" ثقافة".

ويرى مالك بن نبي أن: "الثقافة هي التي تكون طوق النجاة للمجتمع، حين يتعرض للخطر" و "إن مسألة الثقافة يجب أن تطرح، وأن تقوّم فكريا، وفقا للنظام الهرمي للحضارة"، "فالحضارة ليست "كومة" من الأشياء والأفكار ولكنها بناء يعكس عبقرية البلد وشخصيته". (**مالك بن نبي، 1995، ص ص 55–85**).

ومعنى هذا أن الثقافة بإمكانها حماية المجتمع والإنسان من بعض الأخطار كالاستعمار والخمول اللذان يعطلان حركة الإنسان والمجتمع والتاريخ، والحضارة في رأيه هي بناء يعكس طبيعة المجتمع ومستواه الفكري والثقافي.

ويؤكد أيضا: "أن الثقافة لا تستطيع أن تكون أسلوب الحياة في مجتمع معين... إلا إذا اشتملت على عنصر يجعل كل فرد مرتبطا بهذا الأسلوب، فلا يحدث فيه نشوز سلوكه الخاص، ونحن إذا دققنا النظر في هذا العنصر، فإننا نرى أنه لابد أن يكون خلقيا. (**مالك بن نبي: 1979، ص 147**).

والمبدأ الأخلاقي هو شرط أساسي ومبدأ ضروري في الثقافة وأساسي لبناء الحضارة، ويعكس مدى رقي وتقدم الإنسان في المجتمع وفي العالم، وهو يميز المجتمعات عن بعضها ويجعلها أكثر تحضرا بالمعنى الايجابي للكلمة.

2–الفعالية عند مالك بن نبي ودورها في بناء الإنسان و المجتمع.

يرى مالك بن نبي أن مشكلة الفعالية يجب أن تحل في إطار ذواتنا قائلا:

"علينا أن ندرس الجهاز الاجتماعي الأول وهو الإنسان فلو فهما معنى الإنسان جيدا لأدركنا أنه هو الذي يحرك التاريخ وأحيانا لا يحرك ساكنا، فإذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ".(**مالك بن نبي: 1979، ص 129**).

ويطرح مشكلة الفعالية التي تؤدي إلى توجيه الإنسان والتاريخ موضحا شروطها فيما يلي:

أ–الفعالية تستمد من الماضي "تكريم الإنسان":

تكريم الله سبحانه للإنسان، قال تعالى: "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر" (**سورة آل عمران، الجزء الثالث، ص 110**)،المعروف في أعم صوره والمنكر في أشمل معانيه، يكونان جوهر الأحداث التي تواجهنا يوميا كما يكونان لب التاريخ، إذن فالفعالية لها صلة بعملية الاستخلاف في الأرض بغرض العبادة والتعمير من اجل عملية البناء، وهنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو نوع من الرباط يحدد شبكة العلاقات الاجتماعية في صيغة أخلاقية، كما انه يساهم في عملية الإقلاع الحضاري.

ب– الإرادة:

ويرى أننا فقدناها أثناء الاستعمار ويكمن ذلك في "القابلية للاستعمار" وحسب رأيه كان بإمكاننا أن نغير مجرى التاريخ منذ زمن بعيد لكن ركوننا إلى التسليم بالقضاء كان سبب من أسباب فقداننا لهذا العنصر من عناصر الفعالية في الإنسان، فهو يرى "أن الشعوب العربية الإسلامية قد تصارعت مع الاستعمار صراع الأبطال لتتخلص منه، ولكنها كانت في الواقع تتصارع مع ظل وليس مع واقع بالمعنى الصحيح". (**مالك بن نبي: 1979، ص ص 130–131**).

فهو يرى ضرورة استغلال الطاقة الموجودة في الإنسان وعدم الركون إلى الخمول، فلو فهمنا معنى الإنسان جيدا لأدركنا أنه هو الذي يحرك التاريخ وأحيانا لا يحرك ساكنا، فقوله هذا يجعلنا نقف على حقيقة هامة جدا وهي أن الإشكالية هي إشكالية الفعالية في داخل الإنسان الجزائري قبل أن تكون إشكالية وسائل وإمكانيات، إذ يجب أولا أن نصنع رجالا يمشون في التاريخ مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى، فالإنسان إما أن يكون قبل

الحضارة وإما أن يكون في نعيمها وإما أن يكون خرج منها، وأول خطوة من خطوات العودة إلى الحضارة هي باب التفاؤل وثاني خطوة أو باب هو الواجب، ومن هنا جاءت فكرة الطاقات الاجتماعية و"عناصرها الأولية هي اليد والقلب والعقل والعملية الاجتماعية نفسها لا تخرج عن هذه العناصر، فكل طاقة اجتماعية تصدر حتما عن دوافع القلب ومن مسوغات وتوجيهات العقل ومن حركات الأعضاء، فكل نشاط اجتماعي مركب من هذه العناصر، والفعالية تكون أقوى في الوسط الذي ينتج أقوى الدوافع وأقوى التوجيهات وأنشط الحركات"(**مالك بن نبي،1979،ص38**).

والفعالية تبدأ في عملية الأفول عندما تتحلل شبكة العلاقات الاجتماعية وفي هذه الحالة: "خطير جدا أن نرى وضعا كهذا يتخلى كل فاعل اجتماعي فيه عن أيّ التزام تجاه نفسه، مهنته، فكره، دينه وثقافة مجتمعه، دولته، وبانعدام الالتزام تكون الثقافة الديمقراطية قد فقدت أقوى عصب اجتماعي لها، محرّك داخل الأنساق الاجتماعية القائمة والمؤثرة في سيرورة المجتمع."(**سعيد عيادي، 2009،ص41**)

ومالك بن نبي يعطي لهذه العملية تحليلا نفسيا في إطار الواقع الاجتماعي للفرد وبطبيعة الحال فان الفعالية تختلف باختلاف المجتمع الذي وجدت فيه وباختلاف الأهداف الكامنة وراءها، لذلك نجده يلجا في كثير من الأحيان إلى علم النفس وذلك لطبيعة الفرد على العموم ولمنشأ الفكرة التي توجهه، وهنا الفكرة الدينية تلعب الدور الايجابي والفاعل في عملية إعادة البناء الحضاري الهادف.

"فان فكرة الفاعلية أو التوتر تمس الواقع الاجتماعي في كل الظروف، مساً يضعها معه كل مجتمع أو لا يضعها وراء أعماله وسلوكه، فالتوتر حالة نفسية اجتماعية دلّ التاريخ على أنها تنشا في ظروف معينة ثم تزول في ظروف أخرى، وان المسوغات هي التي تكون الدوافع الإنسانية التي تدفع النشاط إلى اعلي قمة."(**مالك بن نبي،1979،ص42**)

حيث أن كل نشاط نقوم بيه يوميا على أساس الحركة، والتاريخ نفسه ليس إلا قائمة إحصائية لعدد معين من الحركات والأفكار، لذلك من البديهي أن المجتمع الذي يسجل يوميا أكبر عدد ممكن من الحركات والأفكار، يكوّن لنفسه محصولا اجتماعيا أكبر، وعلى هذا الأساس تم تحديد فكرة تتبلور فيما يخص الإنتاج الصناعي، وتؤدي إلى تحديد مستوى آخر يخص الإنتاج الاجتماعي وهو قائم على الإنسان الايجابي.

إذا فالفعالية عنده قائمة على الإنسان الايجابي والمحرك للمجتمع والتاريخ والمحافظ على الثقافة البناءة، فالحضارة عنده أساسها الإنسان الفعال والثقافة العملية القائمة على مبادئها الأربعة، (المبدأ الأخلاقي، وذوق الجمال، والمنطق العملي والعلم أو الصناعة) كفيلة بجمع شروط الفعالية في الإنسان والمجتمع قائلا:

"ذلك أننا لو حللنا عملا ما على أنه كائن مركب ومشتمل على دوافع نفسية، فإننا نرى هذه الدوافع يبعثها المبدأ الأخلاقي في النفس، بعثا لا يمكن معه أن يتصور هذا العمل بدونها عملا إراديا، وهذا العمل يأتي بصورة معينة يحددها ذوق الجمال، وبهذا يتم جزء من فعاليته، كما أن هذا العمل سنجده يؤدي للمصلحة الاجتماعية بقدر ما فيه من المنطق العملي الذي يحدد سرعة انجازه، وبه تمام جزء فعاليته الآخر، وهو أخيرا يطلب تطبيق أصول نظرية ووسائل مادية يقدمها العلم" (**مالك بن نبي: 1979،ص151**).

وفي هذا المجال يقول أيضا: "إن السلوك الفعال، وأسلوب الحياة في المجتمع لا يتكونان على أساس العلم، وإنما يتكونان على أساس الثقافة، مع الملاحظة بان هذا التكوين ينشأ مع الطفل منذ اليوم الأول في المهد، وهذا التكوين

يختلف عن الوعي الذي يتكون في سن الخامسة أو السادسة من العمر والذي يكتسب العلم عبره".(**مالك بن نبي:2006،ص105**)

لقد حدد مالك بن نبي شروط الفعالية في الإنسان والمجتمع وبالتالي حدد شروط قيام الحضارة بناءا على ثلاث عناصر وهي: "الإنسان والتراب والوقت"، فهذه العناصر تشكل كلا متكاملا ومتفاعلا قادرة على إيجاد المجتمع الأحسن والحضارة الأفضل ووضعنا في موازنة ايجابية بين الثقافة والعلم فهما يكملان بعضهما في المجتمع الفعال والايجابي، وهذا لا يعني أن الثقافة هي العلم حيث أن الثقافة نقوم بصياغتها بصورة عملية وايجابية في حدود المجتمع الذي وجدت فيه.

وهو يرى أن سلوك الأفراد تحدد وفق نمط البيئة الاجتماعية وهذا الأخير يختلف من مجتمع للآخر وفي هذا الإطار تصاغ الفعالية داخل المجتمعات، والفعالية أساسها الإرادة والانجاز ويحكمها المبدأ الأخلاقي في النفس الإنسانية.

ثالثاً: التنمية الهادفة في المجتمعات العربية والمجتمع الجزائري أساس الإقلاع الحضاري.

1- صناعة السياسة والثقافة.

في عملية الإقلاع الحضاري التي تحدث عنها مالك بن نبي انطلق فيها من عملية التلاحم والتناغم بين مصطلحي السياسة والثقافة، فلا توجد أسبقية للأول على الثاني والعكس صحيح، وذكرنا لكلمة مصطلح لان استأذنا او بالأحرى عالم الاجتماع الذي بصدد توضيح نظرية في اقتصاد القوت والتنمية لجأ إلى التحديد الإجرائي للمصطلحين في محاولة منه للإحداث عملية التنمية في الجزائر والمجتمعات العربية، وذلك لا يخرج إطار المجتمع الذي نحن بصدد دراسته، ففي البداية نقوم بتحديد مصطلح السياسة العملية والهادفة، ولقد عرفها إجرائيا قائلا: "أما السياسة فإننا نحددها على أنها توجيه الطاقات الاجتماعية، لتحقيق بناء المجتمع من في الداخل وتحقيق مكانه في الخارج، على أننا حينما نحلل الطاقات الاجتماعية عامة، نرى أنها تتضمن أولا وقبل كل شيء الفرد أداة وهدفا، فالطاقات الاجتماعية تنبع من الفرد وتعود إليه، فالفرد الصالح حينما يشارك في بناء المجتمع، فان عمله هنا يعود عليه في صورة ضمانات اجتماعية تكفل له توجيه طاقاته الفردية". (**مالك بن نبي، 1979، ص25**)

أما التعريف الإجرائي للثقافة فقد أوردناه في العنصر الخاص بالفرق بين الثقافة والعلم ولتذكير فقط، يمكن القول أن الثقافة عند مالك بن نبي هي عبارة عن طوق للنجاة بالنسبة للمسلم، ولكن هذه الأخيرة "الثقافة" لابد من تكوينها في حدود المجتمع الموجود وفي إطار موجه عن طريق مسوغات عملية تطبع سلوكنا بالفعالية في عملية البناء، وذلك عن طريق إعادة بناء مسوغات الحضارة الإسلامية، و ذلك لان المجتمعات العربية ومن بينها الجزائر في مرحلة ما بعد الحضارة فهي بحاجة إلى عملية **تنحية وانتقاء** وهذا المصطلح يقابله في المفهوم السوسيولوجي مصطلح **التنشئة الاجتماعية**، وفي هذا المجال يقول: "إن صناعة السياسة تعني إلى حد كبير، تغيير الإطار الثقافي في اتجاه ينمي تنمية متناغمة، عبقرية الأمة، ومن هنا فصناعة السياسة تعني في أخر المطاف صناعة الثقافة، حيث تكشف لنا تجربتنا التأثير المشترك لعوامل من أصناف ثلاثة: الصنف الأول: وهو يتصل بالثقافة التي نريد صنعها، والصنف الثاني: وهو يتصل ب(لا ثقافة) موروثة نريد تصفيتها، الصنف الثالث: وهو يتصل بشيء نسميه (ما ضد الثقافة)."(**مالك بن نبي: 1978،ص89**)

لقد ركز أيضا على دور المدرسة في نشر الثقافة والقيم العملية الجديدة وعلى دورها أيضا في رفع اللاثقافة، فالأشياء التي جعلت المجتمع خامل إن صح التعبير هي عملية التكديس، وهذا المصطلح أيضا يدخل في إطار

المصطلحات الجديدة التي حاول مالك بن نبي وضعها لتقريب نظريته أكثر وجعلها عملية، فالنظرية هي بناء أو إعادة صياغة للواقع بصفة عامة.

فالحضارة ليست "كومة" من الأشياء والأفكار ولكنها بناء يعكس عبقرية البلد وشخصيته، ولا يتحقق ذلك إلا عن طريق التخطيط المناسب، وهو يرى أن التخطيط لا ينبغي أن يكون فسيفساء، بل لابد أن يجمع جميع جوانب المشروع الخاص بالتخطيط مثلا: التنمية هناك جوانب اجتماعية واقتصادية... الخ لابد من مراعاتها في عملية التخطيط فينبغي أن يكون التخطيط شامل مصمم تصميما متكاملا غير منفصل، فلابد من أخذ كل الأبعاد وكل التوقعات قبل التنفيذ.

2- الاستثمار في القوى الاجتماعية.

فبرنامج التنمية لبلد ما، كالجزائر مثلا، تكون فرص النجاح لديه مسجلة في منهجيته التخطيطية، وفي نوعية خطته التقنية والأخلاقية، ذلك أنه ينبغي على الخطة، أن تتوقع في إطارها المفاهيمي كما في إطارها التنفيذي كل الشروط المعنوية والمادية لنجاحها، وهي مجموعة شروط، تحدد تماما التقنية المعدة للخطة، ولكن واحدا من هذه الشروط التي تمس مباشرة الجانب التقني للخطة هو وحدة المفهوم. (**مالك بن نبي: 1995،ص 30-31**).

ومالك بن نبي يقصد بأن بلد كالجزائر في إطار التنمية لابد أن تكون خططه كلية وليست جزئية شاملة ومنهجية تشمل كل جوانب التنمية، وتركز على الشروط المعنوية والمادية لنجاحها، وتعد التقنية بكل كفاءة وفعالية وتنفذ بكل موضوعية وتحدد كل أبعاد هذه العملية في إطارها الشمولي لا الجزئي، وهو يرى أن الخطة لابد أن تكون نابعة من المجتمع الأصلي وحسب معاييره وقيمه وإمكانية، فمن الممكن أن تستورد التقنية ولكن لا نستطيع أن نستورد النموذج الخاص بالخطة فهذا مضر جدا على المدى البعيد وخصوصا إذا كان هذا النموذج للإعداد الإنسان.

فيقول: "أن التخطيط يفقد كل معناه التقني ابتدءا من اللحظة التي تكون فيها فكرته الرائدة مستوحاة من الخارج فهذا لا يكون تخطيطا، وإنما مجرد مهارة" (**مالك بن نبي: 1995، ص 33**).

فلا يكون التخطيط فعال وناجح إلا إذا كان مستوحى من القيم التربوية والثقافية المصاغة صياغة عملية لأنها تمثل روح المجتمع وأساس استمراره، إلا أن هذا لا يعني أن لا نطلع على أحدث المستجدات في المجال الاقتصادي ونأخذ أحدث التقنيات لكي نختصر الوقت ونواكب التطور، لكن النماذج المستوردة وخصوصا في هذا المجال مضرة جدا ببنية النسق الاجتماعي لاحقا، وخصوصا التأثير السلبي على الأفكار والقيم التي مع مرور الوقت تفقد قيمتها إذا دخلت فيها مستجدات مضرة بها، فالأحرى بنا أن نصوغ الخطة والإستراتيجية من واقعنا وبيئتنا ولكن بطريقة عملية، لكي نستطيع أن نكون عملية إقلاع حضاري هادفة، وهو يرى أن في بلد مثل الجزائر وحسب الملاحظة العامة فان الاستقلال السياسي لا يكفي ولا يشفي إن لم يدعمه الاستقلال الاقتصادي.

وفي هذا الإطار يرى أننا في الميدان الاقتصادي يجب علينا أن نكشف قدرتنا الحقيقية، التي لا توجد على محور "القدرة المالية "، ولكن على محور "القدرة الاجتماعية"، ويربط التحرر الاقتصادي بالتحرر النفسي –الثقافي، وإلا فان بعضنا الغني يموت جوعا، لأنه لا يحسن التصرف بنا أتاه الله من قدرة، بينما هذه القدرة عظيمة جدا في دول العالم الثالث شريطة أن يحولها من حيز القوة إلى حيز العمل. (**مالك بن نبي، 1978، ص193**)

لقد انطلق عالم الاجتماع مالك بن نبي من ثلاثية حضارية فاعلة للإعادة بناء الفرد والمجتمع معا عن طريق الاستثمار في كلاهما في إطار مسوغات ثلاث هي: الإنسان والوقت والتراب.

3– اقتصاد القوت والتنمية.

كما وضحنا سابقا فإننا بحاجة إلى نظرية تخرج هذه البلدان من أزمتها الحالية، ولقد وضعها عالم الاجتماع الجزائري "مالك بن نبي"، لكن للأسف الشديد لم تطبق في الواقع، وحسب قوله لا يكفي أن ننتج أفكارا بل لابد أن نوفر لها الحياة، وحسب اعتقاده فان الجزائر في بداية استقلالها كان عليها أن تسترجع مواردها البشرية الموجودة في فرنسا لكي تحقق عملية إقلاع الحضاري الهادفة، ولابد أولا تحديد مصطلح عملي تقني لمصطلح التخطيط إذ أن: "فكرة التخطيط تلازم ذهنية عصرنا، فهي جزء لا يتجزآ من ثقافته، لكن تطبيقها يفرض شروطا تختلف من رقعة إلى أخرى أو حتى من وطن إلى آخر."(**مالك بن نبي، 1978،ص 182**)

إذن يمكن القول أن النموذج التنموي يختلف من وطن إلى أخر والذي تتحكم فيه هي الخطة، وبالتالي فان استيراد أي إطار نظري غير مسموح به في كل الأحوال، وذلك لان التخطيط يعتمد على فكرة الطاقة الحيوية وهي تخضع للثقافة العملية، ولقد نبه مالك بن نبي إلى هذه العملية قائلا: "فنحن بحاجة إلى إعادة تنظيم طاقة المسلم الحيوية، وتوجيهها، وأول ما يصادفنا في هذا السبيل هو تنظيم تعليم القرآن بأنه "يوُحْيِ "من جديد إلى الضمير المسلم "الحقيقة "القرآنية كما لو كانت جديدة، نازلة من فورها من السماء على الضمير، وثاني ما يصادفنا هو انه يجب تحديد رسالة المسلم الجديد في العالم، فبهذا يستطيع منذ البداية إن يحتفظ باستقلاله الأخلاقي، حتى ولو عاش في مجتمع لا يتفق مع مثله الأعلى ومبادئه، كما انه يستطيع أن يواجه– رغم فقره أو ثرائه –مسؤولياته مهما يكن قدر الظروف الخارجية الأخلاقية أو المادية". (**مالك بن نبي: 1985، ص 106**)

والصعوبات التي تواجه الأمة العربية اليوم يرى أنها اكبر دليل و أوضح من الناحية النفسية على النهضة و اليقظة في هذا الجيل هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ومن ناحية أخرى ليس علينا من باس في أن نستفيد من دراسة من سبقنا في هذا المضمار لنقول مع **توينبي**: "**إن الصعوبات هي تحدِ خلاق لأنه يستحث الرد عليه**". (**مالك بن نبي، 1979، ص 21**)

بطبيعة الحال عملية الرد هذه تكون عن طريق الكد والتفكير، وفي هذا المجال ركز على اقتصاد القوت قائلا: "لابد إذن من وضع اقتصاد القوت فوق سائر تقلبات السوق في الخارج، وكذلك مناورات البورصات، وعليه لابد أن يوضع مخططه في صورة حلقة مغلقة لا تؤثر فيها العوامل الخارجية. "(**مالك بن نبي، 1978،ص 188**)

ويقصد به الاستثمار في سائر القوى الاجتماعية وذلك من خلال توفير القوت لكل ساعد وكذلك توفير العمل لكل ساعد، وهذه العملية منطقية لأنها تؤدي إلى امتصاص البطالة وتحقيق الاكتفاء الذاتي في آني واحد، كما أنها تؤمن الاكتفاء من حيث الاعتماد على اليد العاملة الوطنية فلا نحتاج إلى خبرة أجنبية.

وقف مالك بن نبي أمام إفرازات متناقضة الدولة –الفرد، وهو ما يبرز ثقل وتأثير هذه المتناقضة في سيرورة التفاعل الاجتماعي الرسمي في كثير من أشكال النظم السياسية في العالم العربي، وهي على العموم كانت ومازالت تخفي إشكالية معقدة ترتبط في جزء كبير منها بغياب الشرط الإنساني في مكونات هذه السيرورة.(**سعيد عيادي، 2009،ص 164**)

ويمكن القول أن عملية التنمية الهادفة لا تحدث إلا في إطار معادلة الفرد للمجتمع والمجتمع للفرد ويكون ذلك في إطار نشاط عملي مشترك في تناغم من خلال تلاحم الطاقة الحيوية للفرد والمجتمع معا، مادمت مصلحة الفرد هي مصلحة المجتمع، وهذا ما يسمى بتفعيل الطاقة الاجتماعية بصورة كلية، ولا يتحقق ذلك إلا إذا اتخذت الدولة والشعب معا دستورا عمليا قائم على برنامج تربوي تنموي فاعل مكون مما يلي:

1- عنصر الأخلاق لتكوين الصلات الاجتماعية.

2- عنصر الجمال لتكوين الذوق العام.

3- منطق عملي لتحديد أشكال النشاط العام.

4- الفن التطبيقي الموائم لكل نوع من أنواع المجتمع.

4- آليات إعادة تفعيل الحضارة العربية الإسلامية مقابل الحضارة الغربية.

لقد ركز مالك بن نبي في عملية إعادة بناء وتفعيل آليات الحضارة العربية الإسلامية على الطابع العملي للثقافة الإسلامية العربية والثلاثية الحضارية **"الإنسان، الوقت، التراب"**، وهي تعمل في شكل ايجابي لغرض إعادة بناء المسوغات الاجتماعية في شكل جديد تكون من خلاله قادرة على عملية الانتقاء والتنحية، وهذا ضروري لأننا في مرحلة ما بعد الحضارة وبالتالي فعملية إعادة البناء والتفعيل ضرورية، كما أن المجتمعات العربية الإسلامية لها نوع من الخصوصية يلعب فيها الجانب النفسي دورا كبيرا ويظهر هذا جليا في القابلية للاستعمار وكذلك التقليد الأعمى للحضارة الغربية ولقد حدد المفكر الاجتماعي ابن خلدون ذلك في مقولة "المغلوب مولع بتقليد الغالب".

كما انه أعطى للفكرة الدينية الأثر البالغ في تكوين الحضارة، وقام بتصنيف المجتمعات في العالم على هذا الأساس فالنموذج الفكري الإيديولوجي ينتمي إليه المجتمع الإسلامي وكذلك المجتمع الأوربي الأصلي، بينما النموذج الثاني هو النموذج الجغرافي وينتمي إليه المجتمع الأمريكي الذي هو نتيجة هجرة أوروبية.

"والمجتمع يحمل إذن في داخله الصفات الذاتية التي تضمن استمراره وتحفظ شخصيته ودوره عبر التاريخ، وهذا العنصر الثابت هو المضمون الجوهري للكيان الاجتماعي، إذ هو الذي يحدد عمر المجتمع، واستمراره عبر الزمن، ويتيح له أن يواجه ظروف تاريخه جميعا".(**مالك بن نبي، 1985،ص 12**)

وفي عملية التمييز بين الثقافة والعلم أعطى أربع موجهات أو عناصر للثقافة وهي المبدأ الأخلاقي والذوق الجمالي والمنطق العملي والصناعة، ويرى أن حل مشكلة الإنسان في ثلاثة عناصر أساسية وهي توجيه الثقافة وتوجيه العمل وتوجيه رأس المال، فهي في العالم الإسلامي تعرضت لعملية الابتعاد عن الدور الحقيقي لها في المبدأ الأساسي الفرد للمجتمع والمجتمع للفرد، ويرى الحضارة الإسلامية مرت بثلاث مراحل مرحلة الميلاد "الروح" ومرحلة القوة "العقل" ومرحلة "الغريزة"، وبالنسبة إليه العامل الديني هو المنشأ الأساسي لكل الحضارات.

ويرى أن الحياة في مجتمع معين قبل أن تتأثر بالفنون والصناعات أي بالجانب المادي أو الاقتصادي من الحضارة تتخذ لها اتجاها عاما ولونا شاملا، يجعلان جميع تفاصليهما مرتبطة بالمبدأ الأخلاقي وذوق الجمال الشائعين في هذا المجتمع، أو بعبارة أدق أنها تكون مرتبطة بالعلاقة الخاصة القائمة بينهما، ونتيجة هذه العلاقة تأتي أولا في ترتيب خاص

يقدم أو يؤخر المبدأ الأخلاقي على ذوق الجمال في (سلم القيم الثقافية)،حتى يتكون نموذج معين بسبب هذا الترتيب.(**مالك بن نبي، 1986 ص 101**)

وعموما فان سلم القيم الثقافية مهم جدا وهو في الحضارة الإسلامية يمكن أن يترتب قبل ذوق الجمال، وإذا رجعنا إلى الأطر النظرية في علم الاجتماع الحضري الغربي نجد أن هناك أربع مؤشرات لا يكولوجية الحضرية والبناء الاجتماعي وهي:

أولاً: مؤشر القوة.

ثانياً: مؤشر المدينة.

ثالثاً: مؤشر القيم **الثقافية.**

رابعاً: مؤشر التكنولوجيا.

وعموما فان علماء الاجتماع الغرب يصنفون من خلالها الحضرية، وكما نعلم فان القرآن الكريم يعتبر المصدر الحقيقي والموثوق فيه من الناحية العلمية والتاريخية، فقد تحدث بكل تفصيل عن الأمم والحضارات الغابرة، وقصة سيدنا سليمان تدل أن هناك حضارة روحية أيضا قبل الحضارة الإسلامية، والتي تحدث عنها القرآن كنوع من الإعجاز والتي تسمى مدينة السماء وهي القدس حاليا، والملاحظ أن كل المؤشرات اجتمعت فيها، فالقوة هي قوة سيدنا سليمان والمتمثلة في التسخير الرباني للمخلوقات كافة في خدمة ونشر رسالة السماء، وهي قوة مادية ومعنوية، ومؤشر المدينة وهذا أيضا كان موجود ومؤشر القيم الثقافية وهذا أيضا متوفر ومتمثل في الرسالة السماوية وتعاليمها، ومؤشر التكنولوجيا وهذا أيضا تحدث عنه القرآن الكريم بنوع من الإعجاز. " قِيلَ لَهَا ادخُلِي الصَّرْحَ فلَمَا رَأتهُ حَسِبَتهُ لجُّةً وَكَشَفَتْ عَن ساَقَيْهاَ قاَل انهُ صَرحُ ممرد من قواريرَ قَالَتْ ربِي إني ظلمت نفسي وأسلمتُ مع سليمانَ لله ربِّ العالمينَ." (**سورة النمل، الجزء التاسع عشر،ص380**)

إذن الحضارة عموما يوجهها العامل الديني وهذه نقطة مهمة ولصالح الحضارة الإسلامية التي حاول مالك بن نبي إرساء وإعادة بناء قواعدها من جديد.

خاتمة:

للبعد الثقافي دور فاعل في إعادة بناء مسوغات الحضارة الإسلامية وخصوصا ونحن في الألفية القادمة نواجه تحديات عالم جديد يطرح علينا بثقله كل مؤشرات الحضرية الغربية الزائفة، والتي تمثل فيها القوة والعلم والحضارة ثلاثية التحدي الجديد، ولقد انطلق عالم الاجتماع الجزائري مالك بن نبي من ثلاثية حضارية فاعلة من اجل إعادة بناء وتفعيل الفرد المجتمع معا وهي تركز أساسا على العامل الديني وثلاثية الإنسان والوقت والتراب، وهذا يمثل بعد تنموي للخروج من حالة الأفول التي عمت المجتمع الإسلامي بصفة عامة والمجتمعات العربية والجزائر خصوصا لأنه انطلق منها وقام بتحليل الأوضاع فيها عن طريق الملاحظة واستعمل المقارنة، وهذه الثلاثية تختصر الوقت والجهد والمال وهي أساس أي إقلاع حضاري وأي عمل تنموي هادف في المستقبل.

قائمة المصادر والمراجع.

1- القرآن الكريم.

2- مالك بن نبي، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين. **شروط النهضة**، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر بدمشق، 1986، سوريا.

3- نبيل محمد توفبق السمالوطي. **الدين والبناء الاجتماعي**. دار الشروق للنشر والتوزيع، الجزء الثاني، دون سنة، جدة.

4- مالك بن نبي، ترجمة عبد الصابور شاهين. **ميلاد مجتمع**. دار الفكر للتوزيع والنشر بدمشق،1985،سوريا.

5- مالك بن نبي، **بين الرشاد والتيه**.دار الفكر للتوزيع والنشر بدمشق،1978،سوريا.

6- حسان محمد وآخرون. **أصول التربية**. دار الكتاب الجامعي، بيروت،2006،لبنان.

7- سعيد عيادي. **البراد يغم الإسلامي وإعادة البناء الحضاري**. دار قرطبة للنشر والتوزيع، 2009،الجزائر.

8- سعيد عيادي. **ترصيص القواعد الثقافية للإعادة البناء الحضاري**. دار قرطبة للنشر والتوزيع، 2009، الجزائر.

9- مالك بن نبي. **مجالس دمشق**. دار الفكر للتوزيع والنشر بدمشق،ط2006،2،سوريا.

10- مالك بن نبي.**إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث**. دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1969، لبنان.

11- مالك بن نبي، ترجمة عبد الصابور شاهين. **شروط النهضة**. دار الفكر للنشر والتوزيع بدمشق، 1986، سوريا.

12- مالك بن نبي، ترجمة عبد الصابور شاهين. **تأملات**. دار الفكر للنشر والتوزيع بدمشق، 1979،سوريا.

13- مالك بن نبي. **من اجل التغيير**. دار الفكر للتوزيع والنشر بدمشق،ط1995،5،سوريا.

14- نعيم حبيب جعنيني.**علم الاجتماع التربية المعاصر بين النظرية والتطبيق**. دار وائل للنشر والتوزيع، عمان، 2009، الأردن.

15- عمر النقيب، **مقومات مشروع بناء إنسان الحضارة في فكر مالك بن نبي التربوي**، الشركة الجزائرية اللبنانية، ط1، الجزائر، 2009.

16- يوسف محمد حسين، **موقف مالك بن نبي من الفكر الغربي الحديث**، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2010.